جهود الجغرافيين

قبل أن نشرع في الإشادة بمجهودات الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط وتوضيح أعمالهم الرائدة أستسمح حضراتكم ، في كلمة تمهيدية ، أتطفل بها على علمكم الواسع ، في استعراض بعض أدوار تطور علم الجغرافيا لدى الأمم السالفة ، فإن العلوم هي جهود مشتركة ، أسهمت فيها الأمم النابهة ، ذات المدنية والحضارة ، والرقي الفكري ، ومنهم – إن لم تكن أمهم – الأمة الإسلامية ، وجهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط الإقليمية والعالمية ، أشهر من أن تحتاج إلى إشادة ،

مسلمين في رسم الخرائط

للأستاذ **محمد بن احمد العقيلي**

فقد أنجبت الأمة الإسلامية شخصيات أضاءت دنيا العلم ، وآفاق الفكر ، وأنارت بمجهوداتها الخيرة مجاهل الأرض ، وآفاق الكون .

أنجبت رجالا وإن كانوا قد غابوا بأجسادهم ، عن هذه الدنيا الفانية ، فإنهم ما برحوا مادة إلهام ، ومثار إيحاء لدنيا العلم ، وإرثا غنيا لأمتهم ، فهم معين من الخير ، وفيض من التراث الإنساني الخالد .

إن الإسلام قدم للبشرية – بعد الهداية للدين القويم – ضياء خالداً من العلوم التي شاركت في التقدم الحضاري والرقي الإنساني ، وتنوير الإنسان بما يقله ويحيط به في هذا الكوكب الأرضي .

إن الأعمال تختلف من حيث المنفعة ، والرؤيا الصحيحة ، والإبداع المبتكر ، وإسعاد البشر وعمارة الكون ، والتقدم الحضاري .

فالأمم تعتد بمن أنجبت ، من قادة ومصلحين ومبتكرين ، ومخترعين وجغرافيين ، ومؤرخين ، وأدباء وشعراء فهم مشاعل أضاءت دنيا الفكر ، وأسهموا في تقدم المعرفة والفنون .

إن الإنسان ينتشر – بقدرة الله – فيمن حوله بتأثير أعماله الخيرة وعلومه النافعة ، وأفكاره النيرة ، منهم من ينتشر على مستوى أمته ، ومنهم من هو على مستوى العالم بأسره ، ومن الأخيرين علماء الجغرافيا المسلمون الذين تأثر بهم الغرب في نهضته الحديثة وغيرهم من علماء المسلمين كابن الهيثم ، وابن سينا ، وابن رشد ، وغيرهم .

إن العلماء المسلمين ومنهم الجغرافيون أعطوا من ذاتهم أكبر نصيب للعلوم ومنها الجغرافيا ، فقد أقبلوا أولاً على الترجمة ، فلما نضجت معارفهم ، قاموا بالدراسة الميدانية والتطبيق العملي ، والتمحيص والتدقيق العلمي .

ثم صنعوا الاصطرلابات العربية ومختلف الآلات الفلكية والأرضية للمسح ومقاسات الارتفاع ، والمزاول ، والساعات والزوايا ، والمساطر ، وغيرها .

وانبرى فريق منهم للرحلات العلمية في البر ، والبحر ، لتطبيق مادرسوه على الطبيعة ، واكتشافات المجاهل وقياسات الدرجات والظل في البلاد ودراسة أحوال الشعوب وعاداتها وتقاليدها ، ودياناتها ، وحيواناتها ونباتاتها ، ومعادنها ، ولم يقفوا عند الجغرافيا الوصفية ، أو الفلكية ، بل تجاوزوها إلى الجغرافيا الطبيعية فقطعوا في سبيل غاياتهم النبيلة ، المفاوز ، وجابوا القفار ، واجتازوا الموانع ، وامتطوا لجج البحار ، وركبوا غوارب الأمواج ، ومخاضات الأنهار ، غير حافلين بالمخاطر ، رغبة في تطبيق ما عرفوه .وتسجيل ما لم يصل إلى علم من سبقهم مسطرين ملاحظاتهم على الأوائل مصححين أغلاط من سبقهم ، ورسم الخرائط على ضوء ذلك . في وقت كان الغرب في دياجر الجهالة وهمجية التوحش ، ولم يبق في أوربا بأسرها شيء من شعاع المعرفة اللهم إلا ما يتناقله رجال الكهنوت خفية .

ليس في طاقتي الإحاطة ، ولا في مقدرتي الشمول بمجهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط ، وما حققوه من تقدم في علم الجغرافيا ، وأنا سأشرح بمحاولتي المبسطة التي أسميها محاضرة ، بقدر جهد ي القاصر ؛ في هذا المؤتمر الحافل الذي دعت إليه جامعة (الإمام محمد بن سعود) والذي يعد الأول من نوعه في جزيرتنا العربية – على ما أعلم – وتشتمل هذه الكلمة على :

١ – الجغرافيا قبل اليونان .
٢ – اليونان والجغرافيا .
٣ – الرومان والجغرافيا .
٤ – العرب والجغرافيا .
٥ – جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط .

يظهر – وإن كان لا يوجد الدليل – أن الفينقيين هم أول من وضع أو أسهم ولو بوضع الخطوط الأولى في علم الجغرافيا ، يهتدي إلى ذلك من معرفة رحلاتهم البحرية ، ونشاطهم التجاري .

فالفينيقيون هم من عرفوا بترويضهم للبحار في أسفار موسمية وركوبهم أثباج الأمواج ، ومسحهم الشواطيء جيئة وذهابا ، واقتحموا الصعاب . واتخذوا من البحر الأبيض مجالا حيوياً ، وقبله من الخليج العربي ، والبحر الأحمر ، قبل انتقالهم من الخليج إلى لبنان ، وتسميتهم مدن مهجرهم الجديد بأسماء مدنهم في الخليج ، كما (صور) و (الجبيل) وغيرهما . منذ ما يقارب خمسة وثلاثين قرنا .

كانت مدينة صور عاصمتهم وقاعدة تجارتهم ، يصلون إليها بمحاصيل أقطار العالم ، ومنتوجات الدنيا ومن صور توزع على الأسواق تجاريا ، وتتداول اقتصاديا ، بين الهند وشمال أفريقيا ، وبين بلاد العرب السعيدة موطن البخور والطيوب إلي بلاد اليونان شمالا .

ومن فوائد تلك الرحلات ، ومن نتائج مغامرتهم الجريئة ، وأسفارهم التجارية الناجحة ، استفادوا علميا باختباراتهم وتجاربهم ، واقتصاديا بتبادل المنتوجات وجلب السلع والعروض ، فأصبحوا دهاقين التجارة ، وسادة البحار . فنمت معلوماتهم بخطوط المواصلات البحرية والمسالك العالمية ، وأحوال الأمم – المعروفة – آنذاك – ومعرفة المدن ، والمسافات بين البلدان ، وأنسب الفصول للأسفار ، ومواسم هبوب الرياح واتجاهاتها والاستدلال بمعرفة النجوم وغير ذلك . فأتقنوا فن الملاحة ، مما مكنهم

من معرفة عالم عصرهم ، ودنيا عهدهم ، والسيطرة على التجارة حتى ، حطمهم الرومان وتفردوا بالسيطرة – كما هو معروف . ولا يبعد أن يكون للبابليين والأشوريين والحيثيين مع ما وصلوا إليه من شأو حضاري بعض المعلومات الجغرافية ، وإن كان شأنها أقل بكثير من المعلومات الفينيقية ، والتي يقال إن بعضها وصل إلى اليونان .

اليونان والجغرافيا

بعد نحو ما يقارب ألف سنة من عهد النبي موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، أهل العهد اليوناني ، الذي عاش فيه شاعر اليونان الكبير (هومير) الذي نظم معلوماته الجغرافية في ملحمته المشهورة (الإلياذة) .

ظل اليونان على تلك المعلومات الضحلة ، حتى ظهور مؤرخهم هيرودت في سنة ٤٨٤ ق .م وبعد استكمال دراسته قام برحلاته – المعروفة إلى ممالك عصره ، فزار ضمن ما زاره من البلاد (مصر) وسجل معلوماته عن البلاد التي زارها ومنها مصر ، التي أفاد عنها بمعلومات جيدة .

واليونان هم بدورهم – أيضاً – جعلوا من البحر الأبيض نقطة ارتكاز ومجالا حيويا لنشاطهم التجاري والسياسي ، وامتد نشاطهم الملاحي إلى البحر الأحمر لتجارة البخور وغيره .

ومما وصل إليهم بالرواية حتى عن الفينيقين ، ومن أخبار روادهم الأوائل ، ومما جاء في الإلياذة تكونت معلوماتهم الأولية التي كانت أساساً لدراسة الجغرافيا .

حملة الإسكندر لفتح العالم

في سنة ٣٣٤ ق . م تقدم الإسكندر بحملته المشهورة ، وكان بصحبته رجال من العلماء والمؤرخين والجغرافيين وغيرهم فاشتغل كل منهم في دائرة اختصاصه .

ومن حصيلة جهودهم منذ خروجهم إلى أن وصلوا الهند ، ومن المعلومات التي جمعها المختصون في أساطيله تجمعت حقائق ومعلومات عن البلاد التي شملتها فتوحاته .

وكان لخلفائه وبالأخص البطالسة ، شغف علمي دفعهم إلى العناية بجمع المعلومات للجغرافية عن شواطيء البحر الأحمر والحبشة ، أضيفت إلى معلوماتهم السابقة ومعلومات رجال حملة الاسكندر .

من كل تلك المعلومات المتفرقة قام (اراتستين اليث ناني) المتوفي سنة ١٩٦ ق.م في عصر البطالسة بتأليف كتاب سجل فيه كل ما وصل إلى علمه وعما يروي عن الفينيقيين وعن الرواد الأوائل وما سجله (هيرودت) ؛ وما جاء عن معلومات علماء حملة الإسكندر وغيرهم .

وجاء بعده الرحالة « استرابون » والجغرافي (بلينيوس) وسجلا ما وصل إلى علم كل منهما ، وقد كتب البقاء لكتاب الرحالة (استرابون) إلى هذا التاريخ .

وفي أواسط القرن الثاني ألف بطليموس كتابه الخالد (جغرافيا) أو (الجغرافيا) فحدد المدن وغيرها بالحسابات الفلكية ، والطرق الرياضية ، ورسم الخرائط المتقنة على خطوط الطول والعرض .

من المعروف ما بلغ إليه سلطان روما واتساع إمبراطوريتها ، وما شملته في ثلاث القارات ، وما يتطلب ذلك من معلومات جغرافية ، بمعرفة مناطقها ، ومدنها ، ومسافاتها ، والطرق المؤدية إليها ، وطبيعة كل منطقة وموقعها ، الأمر الذي استدعى من الدولة الاهتمام بالمعلومات الجغرافية ، والتشجيع على جمعها ، والأخذ بيد المؤلفين .

وكان أكثر معلومات الرومان مستقاة من التجارة وقوافلها ، أو مراكبها ، فمعلوماتهم بالطرق التجارية الرئيسية والأكثر أهمية – بالنسبة إليها – تجاريا وحربياً ، والأمم التي حولها ، والشعوب الأكثر ارتباطا ومصالح تجارية بها ، معلومات صحيحة في الغالب .

إن ترامي أقطار الإمبراطورية وتنوعات محاصيلها ، ووفرة إنتاجاتها جعلتها تقرب من الاكتفاء الذاتي ، إلا ما ندر ، لذلك فكانت لا تستورد من الخارج إلا وسائل الترف أو المواد الكمالية ، ومنها العنبر ، الذي كانت له سوق نافقة ، فيجلب إليها من شواطيء البلطيك ، ويرسل إلى مناطق البحر المتوسط ، في طريق تقطع نهر الخدانوب ، ومنه تدور حول مرتفعات الآلب (الشرقية) ، فالبحر الادرياتي . فتوفرت لديها معلومات عن أوربا مستقاة من تجار تلك المادة . ووفرة المال وبذخ أشراف روما يتطلب الحصول على الأحجار الكريمة ، والطيوب ، والعاج ، والبخور ، والمنسوجات الرفيعة ، وهي مواد ومنتوجات مصدرها الهند وعدد من البلاد العربية ، وبعد ذلك الحرير والورق من منتوجات الصين .

وروما تتقاضى رسوما جمركية على كل تلك السلع تعد من مواردها الرئيسية ، وذلك يستدعى حراسة الحدود ، براً وبحراً ، فضلا عما يقتضيه موقفها العالمي كامبراطورية ، كل ذلك يستوجب سواء في الدوائر الرسمية أم من الباحثين ما يلقي التشجيع ، وإنما مع كل ذلك يغلب عليه الطابع الاقتصادي والسياسي أكثر منه الطابع العلمي .

لما سبق حرصوا على معرفة طريق الهند عبر المحيط الأطلنتي ، متحاشين بقدر المستطاع الابتعاد عن الساحل خشية القراصنة ، وقد يقول قائل – إن طريق المحيط إلى الهند لم يكتشفها إلا (فاسكودى جاما) ، سنة ١٤٩٨م بإرشاد الربان العربي ابن ماجد ، فنقول له إن المعارف الجغرافية اليونانية والرومانية ، قد أسدل عليها الجهل الأوربي حجبا كثيفة فتوارت في ظلام النسيان ومهامه الإهمال ، ولم تعد تلك المعارف إلى أوربا ثانية إلا بفضل المسلمين فترجمها الأوربيون من العربية بعد أن أتموا تحصيلهم العلمي في طليطله ، وقرطبة وغيرها .

لقد كان السفر من (عدن) إلى الهند للأساطيل التجارية الرومانية يستغرق مدة ثلاث سنوات ذهاباً وإياباً وشغف أغنياء وأشراف روما بمنتوجات الهند من المنسوجات المفضضة والمذهبة والعطور والأحجار الكريمة واللؤلؤ ، والافاوية – وبالأخص (الفلفل) وما يدره من الأرباح الجزيلة تغري بتحمل تلك المشاق . فظلوا على تلك الحال ، حتى تمكن بحار جريء يسمى (هيبالوس) بذكائه الخارق من اكتشاف موسم هبوب الرياح الموسمية التي تدفع مركبه إلى الهند ، والعكس ، فكان ذلك اكتشافا له أهميته القصوى بالنسبة إلى عصره بحيث اختصر المدة إلى اثنى عشر شهرا ذهاباً وايابا . فازدهرت التجارة بين الهند وروما .

وبذلك استطاع رائد علم الجغرافيا (بطلميوس) في عهد الإمبراطور (هدريان) أن يحصل على معلومات جديدة ومفيدة عن الهند والبلاد التي وراءها .

وأتى بعد ذلك اهتمام الرومان بالتجارة مع الصين عبر آسيا الصغرى وجبال التركستان الذي كان المحتكر الوحيد لإنتاج الحرير من نسيج دودة القز .

ومن عهد الإمبراطور (يوليوس قيصر) أصبح الحرير مادة الحصول على الأرباح الطائلة والمال الوفير لايبارها أي شيء آخر في أوروبا بأسرها .

فسار الاتجار مع الصين إلى القرن السادس وبعدها تمكن الرومان من إغراء بعض المجازفين بجلب دودة القز إلى القسطنطينية ، وبذلك تمكنوا من تصنيعه ، وهكذا كانت التجارة وسيلة الرومان للمعلومات الجغرافية .

الجغرافيا عند العرب

الشعر بالنسبة إلى العرب أولاً ، والمسلمين ثانياً ، هو المادة الأولى لعلم الجغرافيا أو بالأصح علم تقويم البلدان .

لقد تضمن الشعر الكثير من أسماء الأماكن والمعالم والروضات ، والمنتجعات والمراعي ، والجبال ، والأودية والغدران والبلدان وموارد المياه .

كان العربي يسجل مشاعره في شعر رفيع وبيان مشرق ، مهاد طفولته ومراتع صباه ومواضع لهوه ولعبه ، ومسارح إنعامه ومواقع غزواته وميادين

معاركه . في شعر ينبض بالأحاسيس ويشع بدفع العواطف ، ويجيش بأسمى المشاعر .

وفي شعر الأعشى الشاعر الجوال ، الذي كان يجوب أنحاء الجزيرة من مشارف حضرموت ، إلى أقاصي الشام ما يعرفه حضراتكم .

وفي المعلقات السبع ، أو العشر – على رأي البعض – مادة غنية بما يسمى بالجغرافيا الوصفية ، فهذا امرؤ القيس يقول في مستهل معلقته .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فذكر ثلاثة مواضع وهي (سقط اللوى) – الدخول – حومل) في بيت واحد .

إلى أن يقول :

أصاح ترى برقا أريك وميضه   كلمع اليدين في حبي مكلل
قعدت وأصحابي له بين (ضارج)   وبين (العذيب) بعدما متأمل
على قطن بالشيم أيمن صوبه   وأيسره على (الستار) و (يذبل)
فأضحى يسح الماء حول (كتيفه)   يكب على الأذقاق دوح (الكنهبل)
ومر على (القنان) من نفيانه   فأنزل منه العصم من كل منزل
و (تيماء) لم يترك بها جذع نخلة   ولا أطما إلا مشيدا بجندل

فقد ذكر في ستة الأبيات أسماء (ضارج و (العذيب) وجبال (قطن – الستار – يذبل وموضعي كتيفه – القنان – و (تيماء) .

وهذا (زهير بن أبي سلمى) يقول في معلقته :

تبصر خليلي هل ترى من ضعائن   تحملن بالعلياء من فوق « جرثم »
جعلنا القنان عن يمين وحزنه   وكم بالقنان من محل ومحرم
ووركن بـ (السوبان) ثم جزعنه   عليهن دل الناعم المتنعم
بكرن بكورا واستحرن بسحره   فهن ووادي (الرس) كاليد للفم

وعنترة العبسي يحدد لنا محلة محبوبته (عبلة) ومنتجع قومه فيقول :

وتحل (عبلة) بـ (الجواء) وأهلنا   بالحزن فـ (الصمان) فـ (المتلثم

وجاء دور الأسواق العربية ، من دومة الجندل – في شمال مملكتنا إلى (عثر) في جنوبها ، إلى أسواق جنوب جزيرتنا العربية ، فاقتضت الرحلات والنشاط التجاري في مواسم معروفة ، من التجار والمتسوقين ، ثم قوافل التجارة بين الشرق والغرب ، وهي تقطع الجزيرة من مواطن البخور والطيوب إلى فارس وأقاصي الشام وآسيا الصغرى ، وفي البحر تجتاز التجارة العربية إلى الحبشة ، وأيضاً إلى الهند ، وكانت بعض القوافل تبلغ إلى ثلاثة آلاف جمل .

وكان للحج قدسيته في الجاهلية ، عند العرب ، فيحج إليه من أنحاء الجزيرة ، كل ذلك أسهم في معارف العرب الجغرافية عن جزيرتهم وما حولها .

وجاء الإسلام بنوره الساطع وهديه القويم ، وفرقانه المبين الذي لا لايأتيه الباطل ، جاء لهداية العالمين ، وقص سبحانه وتعالى أحوال الأمم

الماضية والحضارة البائدة ، والمدن المندثرة والباقية ، مما فيه ذكرى وعبرة وعظة ، فاستنارت البصائر واتسعت المدارك .

وكانت لغزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، وسراياه الريادة الأولى لتعرف المسلمين على معلومات جديدة بالنسبة لما سبق ، فمن هجرة إلى الحبشة إلى غزوات في شرق الجزيرة وشمالها ، ثم إلى جنوبها ، وكان لا يطرقها أحد « منهم فضلا عن أن تغزى ، – إلا بدليل أو صحيب » .

وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة استصحب معه دليلا ، وجاء دور البعوث ، والوفود فسلكت السبل وتسهلت الطرق ، التي كان قل من يسلكها .

وكانت السنة العاشرة للهجرة (عام الوفود) فأقبلت وفود العرب من أرجاء جزيرتهم إلى المدينة من كل صقع وصوب ، معلنة إسلامها ، فاتسعت آفاق المعرفة وترسخت المعارف ، فإن الرحلات على الركاب والخيل مع الحل والترحال تتيح للمسافر المشاهدة والمعاينة .

والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم – كما تروى سيرهم – لايبعثون بعثا ، أو يرسلون جيشا إلا بعد أن يسألوا عن الطريق التي سوف يسلكونها والبلاد التي ستغزى(١) .

وجاء دور الفتوح ، في عهد الخليفة الأول ، فاستنفر أبناء الجزيرة العربية ، أقبل مجاهدوها من جميع الأقطار إلى مركز التجمع في عاصمة الإسلام ، فسيرهم صوب العراق والشام ، وهي أقطار كان لايصلها إلا التجار أو الممتاز في أعداد محدودة ، مشتغلين بما وصلوا لأجله ، ليس إلا .

أما هذه الجموع والحشود ، من جيوش المسلمين الذين همهم الأول إعلاء كلمة الله ثم معرفة البلاد التي يفتحونها أولا ويستوطنونها ثانياً ، فيقتضيهم الحال كفاتحين ترسيخ المعرفة بأرضها وجبالها وسهولها ، وأنهارها ووديانها ودروبها ، وبيئتها وطبائع أهلها .

ودخل الناس من أهل البلاد المفتوحة في دين الإسلام ، وأقبلوا لأداء فريضة الحج أو الاتصال بعاصمة الإسلام لشتى الأغراض ، واحتاجت الخلافة لتأمين طرق المواصلات ولإرسال الإمدادات والمؤن واستقبال الخراج واتصالات البريد ، فتجمعت المعلومات الجغرافية من جراء ذلك ، من أخبار الغزاة ، ورواية الأخباريين والقصاص وغيرهم ، ومن علم الأمم التي شملهم الفتح ، فأصبحت معارف المسلمين تتعدى محيط جزيرتهم إلى العراق ، وفارس ، والشام ، ومصر ، فليبيا ، والمغرب ، وما انتهى عهد الخلفاء الراشدين إلا وهناك معلومات جغرافية عن تلك الأقطار التي فتحت في كل من آسيا ، وأفريقيا ، وحصل اختلاطهم بأهل البلاد بالمصاهرة والحلف ، والمحاورة ، والمشاركة ، وهم أمم ذات حضارات وثقافات ومفاهيم وتصورات حضارية ، من فرس ، وروم ، وقبط وسريان ، وبحكم الاختلاط والاحتكاك تفهم العرب ما لديهم ، ومنها المعلومات الجغرافية ، التي هم في أهم الحاجة إليها في تطلعاتهم المستقبلة ، وحاضرهم المتفتح لتطور مسير الحياة في الإدارة والقيادة والسياسة والسيادة ، واتصلت بالرواة والإخباريين والقصاص « فرووها بدورهم — مؤخراً — للمؤلفين ، فسجلوها كحقائق بدون تحقيق أو تحري أو تمحيص ، وأضيفت إليها مادة جديدة هي فضائل البلدان ، كفضائل اليمن ، وما أورده ابن عبدالحكم في كتاب (فتوح مصر) .

لم يمض قرن على سطوع شمس الإسلام حتّى خفق علمه المظفر على أغلب أقطار آسيا وأفريقيا وقسم من أوربا .

بطبيعة الحال فإن إدارة تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف ، الشاسعة المساحة ، المختلفة الأجناس تتطلب المعرفة العلمية ومنها المعلومات الجغرافية ، الوصفية في المرحلة الأولى ، والفلكية في المرحلة اللاحقة .

لقد استولت الفيالق الإسلامية على العراق وما يليه من بلاد فارس ، واجتاحت سوريا سنة ١٦ — ٦٣٨ ، وبلاد ما بين النهرين سنة ٦٤٠ — تقريباً واستولت بعدها على ما تبقى من بلاد فارس . . وأرمينية ، وكردستان ، وأذربيجان وما وراء النهر ، هذا في المشرق .

أما بالنسبة إلى المغرب ، فقد فتحت مصر سنة ٢٠ — ٦٤٣ ، وسارت لفتح ليبيا — بعد ذلك — ولم يتوقف القائد التابعي الجليل عقبة ابن نافع إلا على شواطيء المحيط الأطلسي .

وفي سنة ٥٤ — ٧٦٢ استأنفت الجيوش الإسلامية نشاطها الحربي حتّى أشرفت على سور الصين ومن الناحية الأخرى ، اجتاحت مقاطعة السند — بعد ذلك بفترة — على يد القائد البطل محمد بن القاسم الثقفي .

أما في الميدان الغربي فقد تطلعت الجيوش الإسلامية إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، فغزا القائد البطل طارق بن زياد الأندلس ، وبعد أن وطد دعائم هذا الفتح العظيم ، تقدمت الفيالق الإسلامية حتّى توقفت على نهري الرون والسون ، وشعرت أوربا بما ينتظرها بعد ذلك ، فالتقت تحت قيادة « شارل مرتل » ودارت معركة بوتيه سنة ٧١١٩هـ .

ومن الناحية الأخرى تراجعت الجيوش الإسلامية من تحت أسوار القسطنطينية ، فكان من جراء ذلك انحسار المد الإسلامي عن أوربا من الشرق ومن الغرب ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى غير ما قدر لكان الآن تسمع أصوات الأذان في أجواء أوربا بأسرها .

إن علم الجغرافيا بدأ لدى اليونان شعراً في إلياذة هوميروس ، كما بدأ لدى العرب أولا ثم لدى المسلمين ثانياً ، بدأ شعراً يزخر بالعواطف ويجيش بالمشاعر ، وفي بعض ما أوردناه من الشعر الجاهلي ما يغني عن الإعادة .

أما في الشعر الإسلامي فهذه نماذج غنية بالجغرافيا الوصفية لا في الجزيرة العربية فقط بل في البلاد التي فتحت : قال كعب بن الأشقر الأزدي :

تلبسوا لقراع الحرب بزتهـــا   فأصبحوا من وراء الجسر قد عبروا
ساروا بألـــوية للمجد قـــدرفعت   وتحتهن ليوث في الوغى وقـــر
حتّى إذا خلفوا (الأهواز) واجتمعوا   بـ (رامهرمز) وافاهم بها الخير
حتّى اجتمعنا بـ (سابور الجنود) قد   شب لنـــا ولهـــم نـــار لها شرر
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا   بـ (كازرون) فما عزوا ولا ظفروا
بـ (دشت بارين) يوم الشعب إذ لحقت   أسد بسفك دماء الناس قد زأروا
لما زواهم إلى (كرمان) وانصدعوا   وقد تقاربت الآجال والقـــدر
تأتي علينا حزازات النفوس فمـــا   نبقى عليهم ، ولا يبقون إن قدروا

ورغبة في الاختصار ، فإن في شعر (كثير) الذي هو من أغنى الشعر بذكر الأماكن ، وشعر (ذى الرمة) و (الشماخ) و (شبيب بن البرصاء) و (عدى بن الرقاع) و (كعب بن الاشقر) . ما يغنى .

ومن شعر الرجز ، قصيدة أحمد بن عيسى الرداعي وهي من أهم الأراجيز التي وصفت طريق الحج ، والتي عدد فيها المراحل من أقاصي اليمن إلى مكة المكرمة ، ويكفي في الإشادة بهذه الأرجوزة أن جميع الباحثين عن موقع سوق (عكاظ التاريخي) استرشدوا بها ، واستناروا بما ورد فيها إذ يقول :

يا هند لو أبصرت عن عيان   قلائصا يوضعن من (جلدان)

و « جلدان موضع معروف باسمه إلى هذا التاريخ

إلى أن يقول :

إذا انتحى القوم على الحوص العنق   عن ذات (أصداه) سنامى (الفتق)
العيد هيات العياهيم السحق   وقد طوت (حنطوة) الخرق الآمق
حيث بريد الصخر عن غرب الطرق   أقول للبارق وهنا إذ برق . .
لو أمض البرق اليماني المؤتلق   أيسر (نعمان) إذا شق الأفق

* * *

فقلت لما ثاب لي احتفاظي   والقلب فيه شبه الشواظ
سل الهوى عن قلبك المغتاظ   والعيس تطوى الأرض بالمظاظ
مشفقة من زاجر كظاظ   مسهلة للخبت من (عكاظ)

* * *

فانجردت بالرفق العصائب   عيدية مفعمة المناكب

تاركة (قــران) لـ (المناقب)   بحيث خط الميــل كف الكاتب
و (شربا) في جنح الليل واقب   بكل محض حسن الضرائـــب

ويقول الهمداني في شرح ثلاثة الأبيـات الأخيرة و (قران) و (شرب) مكانان من أرض عكاظ ، وهذه المواضع من الجرداء – الصحراء وشرق جميع هذه المواضع جبل (حضن) من المحجة على يوم وكسر ، : ويسير الناس من (قران) وشرب ذات اليسار ، فيصعدون رأس السرة ، وتسمى (المناقب) وينزلون على (قرن) وهو ميقات أهل نجد .

ولأستاذنا الشيخ حمد الجاسر رسالة قيمة تعد أفضل تحقيق كتب عن موقع عكاظ التاريخي وخارطة للموقع وما حوله .

ويجيء – بعد الشعر – كمادة لعلم الجغرافيا الوصفية الرواة والأخباريون والقصاص ، كمصدر ثر لتفسير الشعر .

لقد تغيرت المفاهيم – في القرن الثاني وأول القرن الثالث – لما طرأ من الحضارة في الإسلام فأصبح مواليد الحواضر ليسوا في مستوى العربي الذي يعيش في البادية ، في رعي أغنامه ، ضاربا في أجواز الفلاة في طلب الكلأ يمارس الغارة والرعي ، على علم وبصيرة بأرضه وما حولها لما تقتضيه ضرورة الانتقال ، والحل والترحال ، وهو على معرفة بمسالكها ودروبها ، وأعلامها ومجاهلها ، وموارد المياه ومواطن الرعي ، فقد يضل الطريق ، أو تعمى عليه السبيل ، فيسترشد بالبيت من الشعر ويستنير بمضمونه ، إلى معرفة ما حوله من جبل شامخ ، أو صحراء منداحة ، أو كثبان منهالة ، أو غدير رقراق .

فجاء الرواة الذين ضربوا في أجواز الصحراء ، وطرقوا مضارب العرب ، لطلب رواية الشعر وتلقي الفصحى من أفواه الصرحاء ليقوموا بدور الشرح والتفسير .

ومن أشهر الرواة والأخباريين الذين تجمعت لديهم روافد الرواية والأخبار وقاموا بدور التأليف في مادة تقويم البلدان ـ الجغرافيا الوصفية .

١ ـ أبو سعيد عبد الملك الأصمعي ـ وكتابه من مصادر معجم البلدان لياقوت .

٢ ـ أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي ـ صاحب كتاب تقويم البلدان وقد أشار إليه ياقوت .

٣ ـ أبو عبيد السكوني .

٤ ـ أبو محمد الحسن بن أحمد صاحب كتاب جزيرة العرب .

٥ ـ أبو الأشعث الكندي صاحب رسالة جبال تهامة .

٦ ـ أبو محمد الغندجاني صاحب كتاب مياه العرب .

٧ ـ أبو سعيد السيرافي .

٨ ـ محمد بن إدريس أبي حفصة في كتابه مناهل العرب .

٩ ـ محمد بن موسى الحازمي .

١٠ ـ أبو الفتح الأسكندري .

هذا على سبيل الاختصار ليس إلا .

إن معلومات الأمم تبدأ بالشعر وتليه الرواية ثم يأتي دور تسجيل المعلومات وتدقيقها وتمحيصها ثم التحقيق والتسجيل الأولى ، وأخيراً دور الدراسة العلمية والتطبيق العملي الذي يليه دور الإبداع والابتكار وهكذا بدأ علم الجغرافيا لدى المسلمين بالشعر فالرواية وتطور بحكم ما يقتضيه التطور إلى علم الجغرافيا الفلكية .

جهود الجغرافيين المسلمين

الجغرافيون المسلمون منحوا العالم أسنى العطاء وأجزل المكاسب العلمية وأفرزت معارفهم ضياء خالداً ، وعلما نافعا ، وخرائط رائدة ، ظلت نحو أربعمائة سنة ، هي القبس المشع ، والنور الهادىء ، والمصدر الثر لعلماء الغرب .

بدأت الترجمة في العهد الأموي – على نطاق محدود وجهود فردية – ورسمت بعض الخرائط الأولية وأن كانت لم تصل إلينا ، وهذا ابن الفقيه الهمذاني يذكر في كتابه (البلدان) ص ٢٨٣ أنه رسمت للحجاج بن يوسف الثقفي خريطة لبلاد الديلم ، ومن البديهي أنه لو لم يسبق إلى علم الحجاج مثل ذلك لما أمر به .

وترجم ابن المقفع المولود سنة ١٠٦هـ أي قبل زوال الدولة الأموية بست وعشرين سنة ، كتاب كليلة ودمنة من لغته الفارسية ، كما ترجم من اليونانية كتاب تحليل القياس لأرسطو .

وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ – ٧٥٠ وبعد موت مؤسسها أبي العباس السفاح خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، الذي أمر برسم خريطة

لقنوات البصرة ، كما أورد ذلك البلاذرى ص ٣٧١ في كتابه فتوح البلدان .

أفلا يكون ـ وامبراطوريته المترامية الأطراف وهي أهم عليه من قنوات البصرة ـ قد أمر برسم خريطة أو خرائط لها .

وفي عهده بدأت الترجمة على المستوى الرسمي ، فقد بعث رسله إلى الهند وفارس والروم ، في طلب الحصول على كتب علوم الأوائل ، فوصله كتاب (السند هند) فأمر رائد علم الهيئة والجغرافيا في عهده محمد ابن إبراهيم الفزاري بنقله إلى العربية .

ولم يقف نشاط الفزاري عند الترجمة ، بل ألف كتابا في الفلك استنار به العرب ، وقد يكون هو أول كتاب في الفلك بالعربية لمؤلف مسلم

ولم نجد فيما لدينا من المصادر تاريخ مولده ، وإنما نستنتج من تاريخ ابتداء قيامه بترجمة الكتاب المذكور في سنة ١٥٦ ـ ٧٧١ أنه قام به وهو في كمال نضوجه العلمي ـ أي في سن ٤٥ سنة ، ـ فإذا صدق استنتاجنا ، فيكون مولده سنة إحدى عشرة ومائة ، في العهد الأموي فأظله العهد العباسي وعمره واحد وعشرون عاما أي أنه ولد ونشأ وتعلم وحفظ بعض اللغات في العهد الأموي .

إن الفزاري مفخرة إسلامية ، وحسبه تنويها وإشادة قول الوزير يحيى ابن خالد بن برمك : أربعة لم يدرك مثلهم :

١ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي .

٢ ـ محمد بن إبراهيم الفزاري .
٣ ـ الإمام أبو حنيفة .
٤ ـ ابن المقفع .

ومن مؤلفات هذا النابغة المسلم الكتب الآتية :

١ ـ كتاب الزيج(٢) .
٢ ـ كتاب المقياس للزوال .
٣ ـ كتاب الاصطرلاب المسطح .
٤ ـ أرجوزة في علم النجوم .

وقد أورد المؤرخ والجغرافي المسعودي فقرة من كتاب الزيج في كتابه مروج الذهب تضمنت وصفاً للعالم المعروف آنذاك .

ثم أمر أبو جعفر المنصور بترجمة كتب بطلميوس التي وصلت إليه ، وهي الترجمة الأولى ، وقد مرت ترجمة علوم الأوائل بأكثر من دور .

لقد أقبل المسلمون في الدور الأول على الترجمة وهم مدفوعون برغم رغبة التطلع العارم ، وبهم العقل الراغب في التفوق ، فترجموا في عجلة الألفاظ وأبقو المصطلحات العلمية والمسميات الفنية بألفاظها الأعجمية مثل :

١ ـ الهميولي أو الهيولي (المادة الأولى) .
٢ ـ الجغرافيا علم تقويم البلدان .
٣ ـ الايتماطيقي (علم الحساب) .

٤ ـ الاسطرقوميا (علم النجوم) .

وغير ذلك :

أما في الأدوار التالية ، وهو دور المراجعة والتروي والتدقيق والتمحيص ، فكانت الترجمة في ترو واناة والتعريب الصحيح الجاد ووضع أسماء عربية لتلك المصطلحات الأعجمية فاخترعوا لبعضها أسماء عربية بطريق المجاز ، أو الاشتقاق ، أو المصدر الصناعي ، فقالوا :

المادة الأولى
والجوهر الفرد
العرض
الجزء
الماهية
الشعوبية
الطائفية
المذهبية
الكيفية
الكمية
الثقل
الحركة
الكروية

كما أضافوا لا النافية فقالوا : اللاإدارية ، اللانهائية ، وغير ذلك ، بل ألفوا كتبا مستقلة للتعريف بالمصطلحات العلمية مثل كتاب (مفاتيح العلوم) .

إن العلماء المسلمين قاموا بدورهم البناء في تقدم الحضارة والعلوم وطوعوا لغتهم ، فاستوعبت حضارة من تقدمها ، ومدنية من سبقها ، فأغنوها بمفردات لم تكن معروفة في موطنها ، من جدورها الأصلية فأوجدوا الأسماء لكل المصطلحات الفنية والكلمات الحضارية .

من المعلوم أن العناية بالترجمة لعلوم الأوائل بلغت غاية عنفوانها ، وأوج نشاطها في عهد الخليفة المأمون ، منشيء دار الحكمة ، أول مؤسس أكاديمية في الإسلام .

إن الخليفة المأمون ملك من طراز فريد ، سعد – بحق – التفوق العلمي ، والنبوغ الفكري في ظل ملكه وهو الذي أمر بإجراء أول تجربة على الطبيعة وتطبيق عملي لدورة الأرض ، عندما اطلع في بعض المصادر أنها أربعة وعشرون وألف ميل ، فأمر بني موسى بن شاكر بأن يقوموا بالتجربة ، فساروا إلى صحراء سنجار ، وكانت التجربة المعروفة تاريخياً ، وحققوا مساحة الدرجة الواحدة ستة وستين ميلا وثلثي الميل .

ومن المعروف أن الأرض مقسمة إلى ثلاثمائة وستين درجة (٦٦$\frac{٢}{٣}$× ٣٦٠) ٣٤٠٠٠ وفي عهد المأمون رسمت أول خريطة ، أو خرائط على مستوى العالم وعرفت بالخرائط المأمونية ، ولا غرو فدولة الإسلام في عهد المأمون هي أكبر دولة في عهدها ولها شبه سلطانها العالمي بالنسبة إلى غيرها .

لقد سبق في جغرافية بطلميوس مصور للعالم في عصره ، كما يشير ياقوت في معجم البلدان أنه رسمت لازدشير من الملوك الساميين خرائط للعالم ، وروى أحمد الطوسي أنه رسمت كذلك (قباذ) وإنما ريادة الجغرافيين المسلمين تفوق كل ما سبقها .

لم تكن تلك الجهود الجغرافية في عهد المأمون إلا بداية رائدة لما بعدها ، ومن رجالها محمد بن موسى الخوارزمي صاحب كتاب صور الأرض وغيره مثل أبي جعفر الخازن الذي يشير صاحب الفهرست أنه أول واضع لهذا النوع من المصورات الجغرافية .

وجاء العالم الجغرافي الشهير أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني المولود سنة خمس وثلاثين ومائتين وهو صاحب كتاب الزيج الصابي المشتمل على :

١ ــ خرائط لـ ٩٤ بلدا .
٢ ــ جداول لأطوال وأعراض الأرض .
٣ ــ الأرصاد التي قام بها .
٩ ــ الآلات المستعملة في زمانه للرصد .

لقد بنى أرصاده على ما قام به بنفسه في مدينتي (الرقة) في العراق و (أنطاكيا) في سوريا ، وحققها على كتاب الزيج الممتحن لأحمد بن عبد عبدالله الحاسب من فلكيي وجغرافيي عصرالمأمون ، وعلى كتاب بطلميوس من الترجمة السريانية .

ومن أعماله المهمة ــ أيضاً ــ الأرصاد التي قام بها ابتداء من سنة ٢٦٧ ــ ٣٧٠ لقياس ارتفاع الشمس في الظهيرة عند المنقلبين الصيفي والشتوي وقد وجد قمة الزاوية ٣٥ ، ٢٣ ، ويقول الدكتور (إمام إبراهيم أحمد : أثبتت الحسابات الحديثة أن القيمة الصحيحة لا تختلف إلا بمقدار دقيقة . هذا مع ما في آلات الرصد القديمة من بدائية وقصور عن الآلات الحديثة المتطورة .

لقد تعدت شهرة البتاني العالم الإسلامي إلى الغرب فهو يعد لديهم في الدرجة الأولى في علم الفلك وقد أشاد به غير واحد منهم .

١ ــ نوه به (كاروجوى) في كتابه (تأريخ الرياضيات) .

٢ ــ عده (لا لاند) من عشرين فلكيا شهروا في العالم .

٣ ــ نعته (سارتون بأعظم فلكيي زمانه ومن أعظم علماء المسلمين في فنــه .

إن جهود الجغرافيين المسلمين في القرنين الثالث والرابع – التاسع والعاشر الميلادي هي الغرة الشامخة والصفحة اللامعة في سجل تأريخ الجغرافية .

لقد عاصر البتاني عالما من أبرز الجغرافيين المسلمين صاحب مدرسة رائدة لها تأثيرها في طريقة رسم الخرائط في عصرها ، وما بعد عصرها ، هو أحمد بن سهم المعروف بأبي زيد البلخي ، صاحب كتاب (صور الأقاليم) المشتمل على خرائطه المشهورة المشتملة على :

١ – مصورات – وخرائط – للعالم .

٢ – مصورات وخرائط للجزيرة العربية .

٣ – مصورات وخرائط للخليج العربي .

٤ – مصورات وخرائط لبحر الروم – البحر الأبيض المتوسط .

٥ – مصورات وخرائط للمغرب .

٦ – مصورات وخرائط لمصر .

٧ – مصورات وخرائط للشام – سوريا .

٨ – مصورات وأربع عشرة خريطة أخرى لأقطار من أواسط العالم الإسلامي وشرقه .

وقد أطلق المستشرق ملر (K. Miller) في كتابه (Meppre Afabicoe) اسم أطلس الإسلام على تلك الخرائط .

وتلاه عبيد الله بن خرداذبه المتوفي سنة ٣٠٠هـ العالم الجغرافي (الجنتلمان) الذي جمع بين نشاط العالم وظرافة النديم ، فقد كان من ندماء الخليفة المعتمد العباسي وألف له كتبا في الغناء والموسيقى ، والمنادمة ، والشراب ، والطعـــام ، ولكن شاءت الأقدار ألا يكون إلا جغرافيا من من الطراز الأول ، فضاعت جميع تلك المؤلفات ما عدا كتابه الخالد في الجغرافيا الموسوم بـ (المسالك والممالك) ، وهو وإن كان عربي المنشأ واللغة فهو بحكم أصله الفارسي يتقن الفارسية ، ويجيد اليونانية ، نستدل على ذلك من قوله :

في مقدمة كتابه (المسالك والممالك) : لقد وجدت بطلميوس قد أبان الحدود ، وأوضح الحجة ، في وصفها بلغته الأعجمية ، فنقلتها إلى اللغة الفصيحة لتقف عليها .

وكتابه المسالك الموجود والمطبوع هو مختصر لأصل كتابه الكبير الجليل ، الزين بالخرائط الملونة التي هي من التراث الخالد .

فهو يقول في مقدمة الكتاب : لقد عملت كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ، ومقدار طولها والعرض ، ومحل البلدان والعامر منها في جميع بلاد الإسلام ، بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما انفرد بالأعمال المجموعة إليها .

لقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلا ، يحكى موضع تلك الأقاليم ، ثم ذكر ما يحيط بها من الأماكن والبقاع ، وما في أضعافها من المدن والأصقاع ، ومالها من القوانين والارتفاع — الخراج .

وكتابه عرف في الغرب ، وعنى به غير واحد من المستشرقين ، وأول من نشره منهم المستشرق (أبار ربيه ده متيار) وترجمة (دي غوى) .

إن المسلم ليشعر بالفخر والاعتزاز ، وهو يجول بناظريه في مآثر الجغرافيين المسلمين ، الذين بريق أسمائهم يخطف الأبصار ضياء وآثارهم العلمية تهز الأعطاف نشوة .

ومن هؤلاء الأعلام ثلاثة عاشوا في القرن الرابع وهم :

١ ـ الاصطخري .

٢ ـ ابن حوقل .

٣ ـ سهراب .

فالأول هو إبراهيم بن محمد الاصطخري ، صاحب كتاب (المسالك والممالك) في الجغرافيا المشتمل على الخرائط المعروفة . قام برحلاته إلى بعض أجزاء الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق . وفارس وما حولها .

التقى بزميله العالم الجغرافي أبي القاسم محمد بن حوقل سنة ٣٩٠ ـ ٩٥١ ببغداد وعرض عليه خرائطه لمراجعتها .

كما أن المقدسي ـ وهو من أتباع مدرسة البلخي ـ ذكر أنه استعان بعدد من الخرائط في رسم خرائط كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ومنها خرائط الاصطخرى ، ثم أشاد بها قائلا : إنها (تدنو من الحقيقة وتستحق التعويل عليها ، وأن كان فيها خلط وخطأ) .

وشهادة ابن حوقل والمقدسي نفى لتهمة المستشرق (دى غوى) بأن خرائط الاصطخرى ليست إلا نسخة من خرائط أبي زيد البلخي .

ويشرح لنا منهجه في مقدمة الكتاب بقوله :

١ – إنه أورد في كتابه أقاليم الأرض وقصده منها مدن الإسلام ، ولم يقصد الأقاليم السبعة التي قسم الأرض إليها من تقدم قبله ومن في عصره .

٢ – جعل لكل قطعة – جهة – مفردة مصورا يحكي وضع ذلك الأقليم .

٣ – إن الغرض من تأليف كتابه وخرائطه ، هو تصوير تلك الأقاليم التي لم يذكرها أحد « قبله » وأعتقد أن في قوله ما يجافي الحقيقة فقد سبقه البلخي وغيره .

٤ – إنه اتخذ لجميع الأرض التي يشتمل عليها البحر المحيط خارطة مصورة – إذا نظر إليها الناظر علم مكان ذلك الإقليم .

ومصور الاصطخرى للعالم مأخوذ عن المخطوط العربي الموجود بمبرة (فارتر) بـ (ليدن) تحت رقم ١٧٠٢ والمخطوط نسخ سنة ٥٨٩ – ١١٩٣ .

أما محمد بن حوقل ضريع الاصطخرى فهو أشهر من أن يعرف ، وهو من أهل (نصيبين وكان مع علمه وفضله يشتغل بأعمال التجارة ، وصل بغداد للمرة الأولى ، ثم رحل عنها في رحلة تجمع بين اشتغاله بالعلم وتكسبه من التجارة ، جال خلالها العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه .

وكأنه عاد إلى بغداد للمرة الثانية بعد رحلته الطويلة ، والتقى بالاصطخرى فيهاً وذلك في ٣٩٠هـ – كما سبقت الإشارة إلى ذلك –

وعرض عليه الاصطخرى خرائطه لتصحيحها ومراجعتها ، وهذا يدل على ما لابن حوقل من المكانة العلمية ، ويظهر أنه بعد تلك الرحلة ألف كتابه المعروف (المسالك والممالك) المشتمل على الخرائط المشهورة ويظهر أن اسم (المسالك والممالك) قد استهوى غير واحد من علماء الجغرافيا ، فسمى الكثير منهم مؤلفاتهم بهذا الاسم ومنهم .

١ – أبو العباس جعفر بن أحمد المروزي المتوفي – سنة ٣٦٨ – ٨٨٧ ويرى البعض أنه أقدم كتاب سمي بهذا الاسم ، والبعض يرجح أن كتاب ابن خرداذ به أقدم منه .

٢ – عبيد الله بن خرداذبه وكتابه بالاسم نفسه .

٣ – احمد بن محمد السرخسي وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٤ – الوزير أبو عبد الله الجيهاني وكتابه موسوم بالاسم نفسه وهذا الكتاب في حكم المفقود .

٥ – إبراهيم بن محمد الاصطخري وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٦ – محمد بن حوقل وكتابه موسوم بالاسم نفسه .

٧ – المهلبي وكتابه موسوم بالاسم نفسه لم يبق منه حسب علمي إلا مقتطفات في معجم البلدان وفي تقويم البلدان لأبي الفدا .

٨ – محمد بن يوسف الوراق موسوم بالاسم نفسه المتوفي سنة ٣٩٠ – ٩٧٣ .

٩ ــ البكري أبو عبيد موسوم بالاسم نفسه

١٠ ــ أبو محمد الحسن الهمداني بالاسم نفسه ذكر ذلك (القفطي) كما ذكره (الصفدي) .

١١ ــ أبو عبد الله الإدريسي موسوم بالاسم نفسه ولم يبق من هذا الكتاب إلا مختصر في مكتبة أوغلي باستنبول واسمه الكامل (روض الأنس ونزهة النفس في المسالك والممالك) .

وقد يكون هناك كتب غيرها سميت بهذا الاسم ولم تصل إلى علمي . ويذكر أن في المسالك والممالك لابن حوقل معلومات ذات قيمة وبالأخص عن أفريقيا والأندلس ، وواضحة في خرائطه المتقنة .

ومن أبرز جغرافيي القرن الرابع أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني صاحب كتب صفة جزيرة العرب وغيره وكتاب صفة جزيرة العرب يعد من أهم ما ألف عن الجزيرة العربية ، وكل باحث في القديم أو الحديث محتاج إلى هذا الكتاب القيم ، فقد مسح مسحا جغرافيا واجتماعيا الجزيرة العربية ، وجاب أكثرها بنفسه .

ويقول عنه المستشرق (اغناطيوس كرانشكوفسكي) : لم يكن الهمداني جغرافيا فحسب بل خبيرا كبيرا بأنساب العرب ، وتاريخ الجزيرة خاصة آثارها القديمة ، ومما يدعو إلى الدهشة حقا أنه استطاع فك رموز الكتابة القديمة العربية في جنوب الجزيرة .

وفي منتصف القرن الرابع عاش الجغرافي الفلكي المعروف باسم (سهراب) صاحب كتاب (صور الأقاليم ويظهر من اسمه أنه مسلم من

أهل فارس ، وقد طبع كتابه (BA.H.DMSIK) والكتاب من حيث معلوماته الجغرافية الإسلامية يشتمل على فوائد ذات قيمة علمية ، ومن حيث تبويبه وترتيبه فقد سار على طريقة كتاب وخرائط الخوارزمي ، واهتمام ذلك المستشرق به وطبعه يعطي فكرة عن قيمة الكتاب الجغرافية .

ولم يقف النشاط على العلماء المتفرغين ، بل شارك فيه وزير عالم من وزراء الدولة السامية مع تبعته بمهام الوزارة وشئون الدولة ، هو الوزير أبو عبد الله الجيهاني ، فألف كتابه – الذي سبقت الإشارة إليه باسم (المسالك والممالك) ورسم خرائطه بعد ما قسم الأرض إلى عشرين جزءاً ، وجعل كتابه شرحا وتبيانا لتلك الخرائط ، المصورة لأشكال الأرض بل ولمواقع النجوم بالنسبة إلى البلدان ، وهذا الكتاب مصدر مهم لكثير من المؤلفين ومنهم المقدسي . الذي يخالف من قال بتقسيم الأرض إلى عشرين جزءاً ويقول بل جعل العالم سبعة أقاليم ، وجعل لكل إقليم كوكبا .

ومن عظماء الجغرافيين المسلمين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، وشد ما يعجبني فيه مع مجهوده العلمي الجغرافي الكبير التزامه – كمسلم – بالخلق الإسلامي الرفيع ، فهو بعد أن يوضح لنا منهجه في رحلته الطويلة وجمعه المعلومات واتصالاته بالناس في كل إقليم دخله وبلد وصلها دارسا منقبا مسجلا محصيا بما لم يسبقه أحد » قبله يقول : مع ذوق الهواء ، ووزن الماء . . . وترك المعصية ولزوم النصح للمسلمين ، والمراقبة لله والخشية منه ، بعدما رغبت النفس في الأجر وخوفتها من الإثم . . إلخ .

وقد جال وجاب البلاد الاسلامية وجزيرة العرب ، وأورد عنها معلومات مفيدة ، وبالأخص عن جنوبها وكعادته في التقصي ، يورد المذاهب السائدة والعملات المتداولة ، والموازين والمكاييل واللباس .

كما يفيدنا عن المكتبات العامة والخاصة في بعض مدن الإسلام ، والخرائط الموجودة بها مثل :

١ – مكتبة الصاحب بن عباد ومن محتوياتها كتاب أبي زيد البلخي بأشكال الأرض وصورها .

٢ – مكتبة عضد الدولة بنيسابور محتوياتها كتاب أبي زيد البلخي بأشكال الأرض وغيره .

٣ – وغير ذلك .

ويورد في كتابه دراسة عن الجغرافيا الفلكية ، ويشير إلى المصادر التي استعان بها ، وإن كان يتحامل وينتقد أكثرها .

كما يشير إلى مصادره من الخرائط التي استعان بها في رسم خرائطه فيقول وأما الاشكال التي مثلناها فقد بذلنا فيها جهدنا حتّى صححت بعد تأمل عدة من الصور منها .

١ – صورة – خارطة – وجدتها بخزانة ملك المشرق على كاغدة مصورة مثال مربع .

٢ – صورة – خارطة – على كراسة عند أبي القاسم الأنماطي بنيسابور مربعة أيضاً .

٣ ــ صورة ــ خارطة ــ لإبراهيم الفارسي .

٤ ــ صورة ــ خارطة ــ لشيخ بـ (سرخس) .

كما يورد إشارة في مقدمته يفهم منها أنه انتهى من كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم سنة ٣٧٥هـ .

ويفيدنا أنه قسم الأرض إلى أربعة عشر إقليما ، وأنه اقتصر على ممالك الإسلام ، وأفرد أقاليم العرب عن أقاليم العجم وفصل كل أقليم بمصور خارطة توضح أمصاره ، وقصباته ، ومدنه ، وخطط إليها الطرق كما رسم خرائطه بالألوان على الوجه الآتي :

١ ــ الطرق باللون الأحمر .

٢ ــ البحار باللون الأخضر .

٣ ــ الأنهار باللون الأزرق .

٤ ــ الرمال باللون الذهبي .

٥ ــ الجبال باللون الأغبر .

وبلغ ماقطعه في رحلته بحراً ألفي فرسخ، وأنه دار على الجزيرة العربية من القلزم إلى عبادان .

والمقدسي من كبار مشاهير الجغرافيين الفلكيين الذين عرفهم الغرب وأشاد بأعمالهم .

١ ــ عده المستشرق (اشبرنجر) أعظم الجغرافيين في كل العصور .

٢ — قال سبرنغر (Sprenger) لم يتجول سائح « في البلاد كما تجول المقدسي ، ولم يحسن ترتيب عمله أحد مثله .

٣ — وقال المستشرق (ميستر Clld Meister) امتاز المقدسي على سائر علماء البلدان بكثرة ملاحظاته وسعة اطلاعه .

ومن عظماء الجغرافيين المسلمين في القرن الرابع أبو الريحان البيروني المولود سنة ٣٦٣ — ٩٧٣ صاحب كتب (التفهيم) المشتمل في مخطوطاته الخمسة ، مصورا — خارطة — مستديرة لمواضع البحار . و (القانون المسعود والذي وإن كان من كتب الفلك ، فإنه يحتوي على بعض المعلومات الجغرافية القيمة ، وكتابه) الآثار الباقية الذي أورد به بعض الطرق الهندسية لمساقط مصورات السماء والأرض .

لقد قضى البيروني عمره في الرحلات العلمية حتى نعت في وطنه بالغريب ، وبعد مضي سبع وثلاثين سنة في الأسفار عاد إلى وطنه ، ثم استأنف السير في ركب الملك المسعود إلى الهند .

وكان يتقن اللغات الآتية :

١ — العربية .

٢ — الخوارزمية .

٣ — الفارسية .

٤ — الهندية .

٥ – السريانيـة .

٦ – اليونانيـة .

فالبيروني مفخرة من مفاخر علماء المسلمين .

وعلى بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الفلكي والجغرافي المعروف صاحب كتاب الزيج الحاكمي المشتمل على أربعة مجلدات ، صحح به أغلاط من سبقه من مصنفي الأزياج ، وقد ذكر في زيجه خطوط الطول والعرض وفق الأقاليم السبعة .

ويقول صاحب (حضارة العرب) : وضع بن يونس في القاهرة الزيج الحاكمي ، فأنسى كل زيج قبله في العالم حتى عنى به فلكيو الصين فذكره أحدهم المدعو (كوشيو كينغ سو) ١٢٨٠م .

وترجم أستاذ العربية في كليه فرنسا المسيو (كوسان (سنة ١٨٠٤) بعض فصول الزيج الحاكمي إلى الفرنسية . ولابن يونس عدد من المؤلفات القيمة غير كتابة الزيج الحاكمي .

ومن مشاهير الجغرافيين المسلمين أبو عبد الله الإدريسي المتوفي سنة ٥٦٠هـ ١١٦٦م ولد في مدينة سبتة وتلقى تعليمه في جامعة قرطبة بالأندلس وكان خدن أسفار وجواب آفاق ، حتى استقر في بلاد ملك صقلية روجر الثاني ، وهناك تفرغ لعمله الكبير المشتمل على واحد وسبعين مصورا ، ونقش خريطته المستديرة على دائرة من الفضة ، وألف كتابه المشهور نزهة

المشتاق ليكون بمثابة الشرح والتوضيح لخرائطه الرائدة (التي ظلت مرجع جغرافيي الغرب زهاء ثلاثمائة سنة) التي قضى مدة طائلة في إعدادها ، وهي أول خريطة للعالم قريبة من أصول علم الجغرافيا وتخطيطها الفني بالنسبة إلى عصره .

ومن الجهود المبرورة والآثار العلمية المشهورة في علم الجغرافيا كتاب (ابن سعيد بن موسى بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأندلسي المولود سنة ٦١٠هـ – ١٢١٤م في قلعة يحصب قرب غرناطة ، المسمى (جغرافيا الأقاليم السابعة) وهو من طراز كتاب الإدريسي مقسم إلى سبعة أقاليم ، وكل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ووضح خطوط الطول والعرض مما يضفي على الكتاب أهمية كبيرة ، وبه تفصيلات عن جنوب الجزيرة العربية ومدنها وقواعدها ، وكذا حقائق جديدة بالنسبة إلى عصره عن أفريقيا استفادها من رحلة بن فاطمة الذي جاب شواطيء فريقيا وغير ذلك ، ويوجد من الكتاب جزء في مكتبة باريس تحت رقم٢٢٣٤ ، وفي المتحف البريطاني القسم الشرقي تحت رقم ١٥٢٤ .

وذكر الزركلي في الأعلام جـ٥ ص ١٧٩ في ترجمته ، مؤلفاته منها في الجغرافيا .

١ – وصف الكون .

٢ – بساط الأرض .

وكلاهما مخطوط .

ويأتي كتاب عجائب المخلوقات للقزويني المتوفي سنة ٦٨٢هـ — ١٢٨٣م ضمن المجهودات الجغرافية الكبيرة وإن كان به حقائق جغرافية رمصور للعالم فإنه يصنف في قسم الجغرافيا الطبيعية ، أو التاريخ الطبيعي .

لقد أورد في هذا الكتاب معلومات قيمة لأرقى ما وصل إليه العلم في عصره ، بل ومنها ما يتجاوز عصره إلى وقتنا الحاضر .

تكلم عن السماء ، ووصف الكواكب والنجوم ، والشهب ، والأبراج وحركاتها ، ومداراتها ، وما يترتب على ذلك من فصول السنة ، والشهور والأيام ، والأنواء ، والعواصف .

ووصف الأرض وما عليها ، ونشوءها وتكوينها ، وطبيعتها ، والغلاف الهوائي والتخلل الجوي ، وما ينتج عنه ، واليابس من الأرض . والمغمور بماء البحر ، وما يحيط بها من البحار ، واختلاف آراء الأقدمين ومن بعدهم في كرويتها ، ودورانها وتكلم عن الجاذبية وعن الحيوان ، والجماد ، والمعادن ، والتوالد ، والزلزال ، الأنهار ، والأمطار ، والرعد ، والبرق والظواهر الطبيعية ، وأقاليم الأرض ، وخواص البلاد ، وتأثير البلاد في السكان والحيوان ، وفي النبات والحيوان ، وحاجة الإنسان الاجتماعية إلى إحداث المدن والقرى ،

وخرائطه أقرب إلى الإقليمية منها إلى الخرائط العالمية ، وفي ما أورده عن ديار العرب معلومات شبه مفصلة . ولا تخلو من الدقة أحيانا ، وبعض الأساطير .

وجاء أبو الفداء بكتابه القيم تقويم البلدان والمحتوي على جداول الطول والعرض ، وأضاف معلومات عن غير الممالك الإسلامية ، وقسم العالم إلى ثمانية وعشرين إقليما .

ولقد عرف الغرب كتابه القيم لأول مرة عن طريق المستشرفين (جوليوس) Goilvs و (ريسكه) Reiske والكتاب مطبوع متداول .

وأبو الفداء هو أمير حماه من الأسرة الأيوبية . ولد سنة ٦٧٢هـ – ١٢٧٣م وتوفي سنة ٧٣٢هـ – ١٣٣١م بمدينة حماه بسوريا . . ولا ننسى كتاب معجم البلدان الذي جمع بين الجغرافيا الوصفية والفلكية فهو أضخم وأوفى كتاب .

وتلاه (ابن الوردي) بكتابه المعروف (خريدة العجائب والغرائب) في تقويم البلدان – الجغرافيا – وبه مصور للعالم .

وقد ترجم بعض المستشرقين جملا منه ، . . وتوفي ابن الوردي سنة ٨٦١ هـ – ١٤٥٧م ، ومن بعد ذلك التاريخ ركد نشاط التأليف الجغرافي في العالم العربي ، وإن كان استأنف بعض نشاطه في فارس وتركياالمسلمتين .

إن جهود الجغرافيين المسلمين أعظم من أن تحيط بها محاضرة ، وإنصافا للحقيقة نورد في ختام هذه المحاضرة بعض ما قاله المنصفون من علماء الغرب .

قال غستاف لوبون في كتابه حضارة العرب تحت عنوان (التقدم الذي حققه العرب في الجغرافيا) .

(كان من نتائج ريادة العرب ومعارفهم الفلكية ، أن اتفق لعلم الجغرافيا تقدم مهم ، ولا غرو فالعرب الذين اتخذوا في البداية علماء اليونان ، ولا سيما بطليموس أدلاء لهم في علم الجغرافيا ، لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم) .

كانت مواقع المدن الكثيرة التي عينها بطليموس تعيينا جغرافيا غير مطابقة للحقيقة تماما ، وبلغ مقدار غلطه في تعيين البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ) .

(ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عينها الأغارقة والأمكنة التي عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم الذي تم على بد العرب ، فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذي حققه العرب بقرب من الصحة بما لا يزيد على بضع دقائق ، وأن الخطأ لدى الأغارقة فيه بلغ درجات كثيرة) .

(وكان تعيين الطول صعبا على العرب وذلك لما يعوزهم في ذلك الحين من مقياس الزمن (كرونومتر) ومن تقاويم مضبوطة للقمر ، ومغالطهم أظهر من ذلك وإن لم تزد على درجتين إلا نادراً ، أي وإن كانت دون غلط الأغارقة بمراحل) .

(حقا أن أغاليط اليونان كانت في تعيين الطول فاحشة في بعض الأحيان ، ومنها غلط بطليموس ، الذي اتخذ الإسكندرية مبدأ للطول في طول طنجة نحو ١٨ درجة فجعله ثلاثاً وخمسين درجة وثلاثين دقيقة بدلا من خمس وثلاثين درجة وإحدى وأربعين دقيقة) .

ومنها أن جعل بطليموس في تقويمه طول المحور الكبير للبحر المتوسط الممتد من طنجة إلى طرابلس الشام تسع عشرة درجة زيادة عن

الحقيقة ، أي ما يعادل أربعمائة فرسخ تقريباً ، مع أن غلط العرب فيه أقل من درجة واحدة) .

وكتب العرب التي انتهيت إليها في علم الجغرافيا مهمة للغاية . وكانت أساساً لدراسة هذا العلم في أوربا قرونا كثيرة) .

وخريطة الإدريسي التي اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة لم يكتشفها الأوروبيون إلا في العصر الحاضر . تثبت أن معارف العرب في جغرافية أفريقيا أعظم مما ظن زمنا طويلا) .

(ويحتاج إحصاء أهم جغرافيي العرب وما ألفوا من كتب إلى بيان طويل ، فقد ذكر أبو الفداء وحده أسماء ستين عالما جغرافيا من الذين ظهروا قبله) .

(والعرب هم الذين نشروا كتبا جغرافية قامت مقام الكتب التي ألفت قبلها ، فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قرونا كثيرة) . انتهى .

ويقول صاحب دائرة معارف (لاروس) : (إذا أراد القاريء أن يجد عجيبة من العجائب الجغرافية فلا يبحثن عنها في أوربا التي صارت آنذاك بربرية ، ولكن فليبحث عند العرب ، كان الخلفاء كلما أمعنوا في الفتوح أمروا برسم الأرض التي يفتحونها .

ولو أردنا إيراد الشواهد لطال المقال والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مصادر البحث

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	المسالك والممالك	ابن خرداذبة
٢	أحسن التقاسيم	المقدسي
٣	الآثار الباقية	أبو الريحان البيروني
٤	البلدان	ابن الفقيه الهمذاني
٥	صفة جزيرة العرب	الحسن بن أحمد الهمداني
٦	معجم البلدان	ياقوت الحموي
٧	تأريخ العرب قبل الإسلام	جواد على
٨	تراث العالم	جواد على
٩	المنجد	لويس معلوف
١٠	ضحى الإسلام	أحمد أمين
١١	تأريخ التمدن الإسلامي	جرجى زيدان
١٢	دائرة معارف وجدى	فريد وجدي
١٣	دائرة المعارف الإسلامية	فريد وجدي
١٤	الفهرست لابن النديم	ابن النديم
١٥	مروج الذهب	المسعودي
١٦	الأعلام	خير الدين الزركلي
١٧	مفاتيح العلوم	الخوارزمي
١٨	اكتشاف جزيرة العرب	ترجمة قدري قلعجي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١٩	تأريخ العالم	ترجمة قسم الترجمة بوزارة التربية بمصر
٢٠	فتوح البلدان	البلاذري
٢١	حضارة العرب	جستاف لوبون
٢٢	تأريخ الشعوب الإسلامية	بركلمان
٢٣	مجلة الفيصل	بركلمان
٢٣	مجلة الفيصل	بركلمان
٢٤	أوراق خاصة من جمع صاحب المحاضرة	
٢٥	وفيات الأعيان	ابن خلكان
٢٦	تاريخ الطبري	الطبري

الهوامش

(١) كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، صف لى مصر فأجابه : مصر – يا أمير المؤمنين – تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر ، وعرضها عشر ، يخط وسطها نهر مبارك الروحات ميمون الغدوات ، يجري بالزيادة والنقصان كجريان الشمس والقمر ، له آوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتي إذا أصلح عجاجه وتعظمت أمواجه لم يكن وصول أهل القري إلي بعضها إلا في خفاف القوارب ، وصغار المراكب ، فاذا تكاملت زيادته انكفأ علي عقبيه كأول ما بدأ في شدته ، وطمي في حدته ، عند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون الأرض ، ويرجون الثمر من الرب .

وعندما أراد عمرو بن العاص غزو البحر ، استأذن عمر ، فكتب إليه صف البحر ، فكتب إليه يا أمير المؤمنين : البحر خلق كبير يركبه خلق صغير ، فراكبه دود عل عود ، إن هاج أزاغ العقول ، وإن ركد أمض القلوب داخله مفقود ، وخارجه مولود .

(٢) الزيج اسم يطلق علي الجداول الفلكية والجداول الجغرافية الخاصة بخطوط الطول والعرض .